معصرة عنب (نبيذ) في قرية قم

إعداد: حكمت الطعاني

الموقع

تقع قرية قم على بعد ١٧كم شمال غرب مدينة إربد (شكل ١) على الطريق الرئيسي الموصل ما بين مدينة إربد والشونة الشمالية. وترتفع حوالي ٣٤٦م عن سطح البحر. والموقع عبارة عن مرتفع ينحصر بين واديين يتفرعان عن وادي حوفا هما وادي دوقرة من الجهة الشرقية ووادي خلة الزُط من الجهة الغربية الذي يفصل ما بين قرية كفر أسد من الجهة الغربية وقرية قم من الجهة الشرقية. وينحدر الواديين باتجاه الشمال ليشكلا وادياً واحداً شمال قرية قم.

أثناء الحفريات الأثرية الإنقاذية التي أجرتها دائرة الآثار العامة / مكتب آثار إربد بإشراف كاتب التقرير خلال شهري كانون ثاني وشباط من عام ١٩٩٤، للمرحلة الثانية من مشروع الطريق السريع ما بين اربد - الشونة الشمالية والذي يمتد ما بين قريتي جمحا وكفر أسد مروراً بقرية قم بطول ٨ كم والذي أشرفت على تنفيذه وزارة الأشغال العامة. تم الكشف أثناء تلك الحفريات عن عدة مباني ومنشآت معمارية وكهوف ومقابر مقطوعة في الصخر تنحصر معظمها في قرية قم وضمن سعة

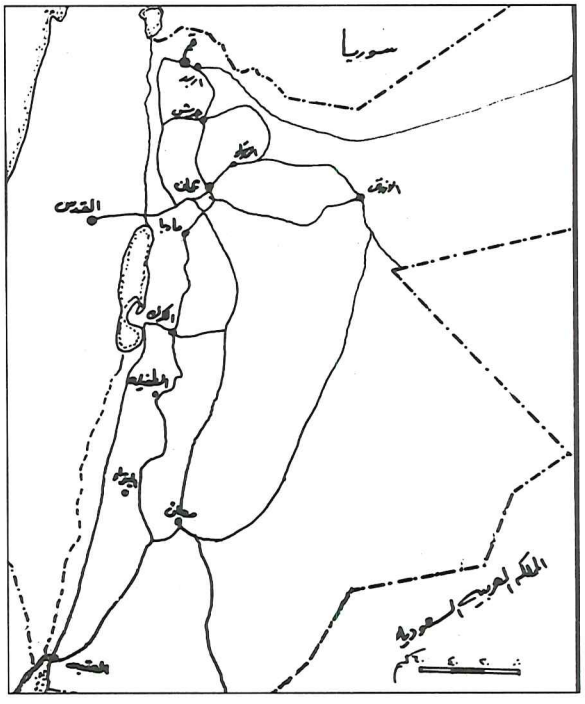

شكل (١) خارطة الأردن مبين عليها موقع قرية قم.

الطريق المشار إليه (شكل ٢) إذ أن مسار الطريق يشطر قرية قم إلى شطرين، شمالي وهي القرية القديمة (أسست في أوائل القرن العشرين) وجنوبي وهي مباني حديثة أنشأت خلال العقدين الماضيين من هذا القرن وهي امتداداً لقرية قم، وكلاهما مبني على أنقاض موقع أثري قديم.

زار المنطقة العالم الألماني شوماخر (Schumacher 1890: 137) واستنتج من خلال كثرة آثارها السطحية التي شاهدها أن قم والمناطق المجاورة لها كانت فيما مضى ذات كثافة سكانية عالية. وذكرها أيضاً العالم الألماني متمان (Mittmann 1970: 360) في مسحه الأثري عام ١٩٦٥ بأن المنطقة الأثرية في قم تشكل مرتفعاً يظهر به العديد من الجدران، وتغطي السطح الكسر الفخارية التي تعود إلى الفترات الرومانية وحتى الفترات الإسلامية المتأخرة.

ودلت الحفريات التي جرت في موقع قم أنه سكن في الفترة الرومانية واستمر الاستيطان فيه بدون انقطاع منذ تلك الفترة وحتى الفترات الإسلامية المتأخرة (طروانة ١٩٩٠: ٦).

ومن أبرز ما تم الكشف عنه خلال الحفريات الإنقاذية هو كنيسة صغيرة (Chaple) ومعصرة للعنب (النبيذ). وسأكتفي هنا بعرض مفصل عن المعصرة كونها من أهم

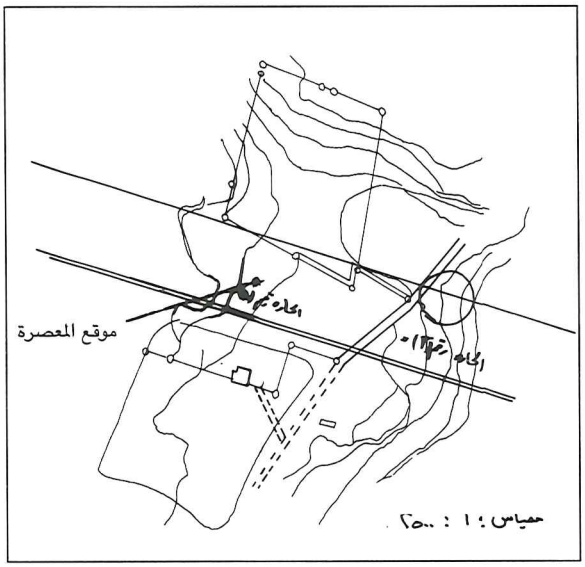

شكل (٢) مخطط طوبغرافي مُبين عليه موقع المعصرة.

المعاصر التي تم الكشف عنها في منطقة شمال الأردن، وأن ما نشر في مجال المعاصر عن هذه المنطقة لا يكاد يذكر إذا ما قورن ببقية المناطق باستثناء معاصر عنب اليصيلة (المحيسن ١٩٩١: ١١) مع العلم بأن المعصرة والكنيسة قد أزيلا من مكانيهما لتعارضهما مع سعة الطريق المشار إليه.

وصف المعصرة ونظام العمل بها

تقع المعصرة على الطرف الجنوبي الغربي لقرية قم القديمة (شكل ٢) وهي مقامة على منطقة صخرية على الجانب الشرقي لمنحدر يشكل وادياً صغيراً يمتد نحو الشمال بمحاذاة قرية قم من الجهة الغربية يطلق عليه وادي (خلة الزُط). تبلغ المساحة الكلية للمعصرة حوالي ١٦٥م^2 أبعادها (١٥م شمال/جنوب × ١١م) وتشتمل على سلسلة أحواض كبيرة (مسطحات) وعددها سبعة (شكل ٣) وتكاد تكون مساحة هذه الأحواض متساوية حيث تتراوح أطوالها ما بين (٣ – ٣.٨م) وعرضها ما بين (١.٨ – ٢.٤م) أرضياتها مرصوفة بالفسيفساء ذات المكعبات الكبيرة بيضاء اللون ويفصل المسطحات بعضها عن بعض حواجز صخرية يتراوح عرضها ما بين (٢٠-٦٠سم) بارتفاعات متفاوتة ما بين (١٠-٣٥سم) وهذه الحواجز تستعمل لتسهيل حركة العمال ما بين المسطحات أثناء العمل، ويوجد في نهاية كل سطح من هذه المسطحات وباتجاه أرضية الهرس الرئيسية والتي تحيط بها المسطحات من جهتي الجنوب والشرق حوض صغير، أبعاد هذه الأحواض (٦٠×٦٠سم) وبعمق يتراوح ما بين (٤٠-٥٠ سم). وأرضيات هذه الأحواض مغطاة بالفسيفساء ذات مكعبات كبيرة ولون أبيض وجدرانها مغطاة بطبقة سميكة من القصارة الكلسية (شكل ٤أ، ب).

إن سلسلة المسطحات هذه معدة لإستقبال محاصيل العنب التي تجلب من الكروم، وعندما تكون أرضية الهرس الرئيسية في حالة عمل مع محاصيل سابقة من العنب فإنها توضع على تلك المسطحات، وبفعل تأثير ثقل ضغط العنب على بعضه البعض يخرج منه عصير ينساب إلى الأحواض الصغيرة الموجودة في نهاية كل مسطح وهذه الأحواض متصلة بأرضية الهرس الرئيسية عن طريق فتحة دائرية في قاع الحوض قطرها ٤سم. وعند إغلاق هذه الفتحة يعمل الحوض عمل معصرة مستقلة عن طريق تجميع العصير الناتج عن

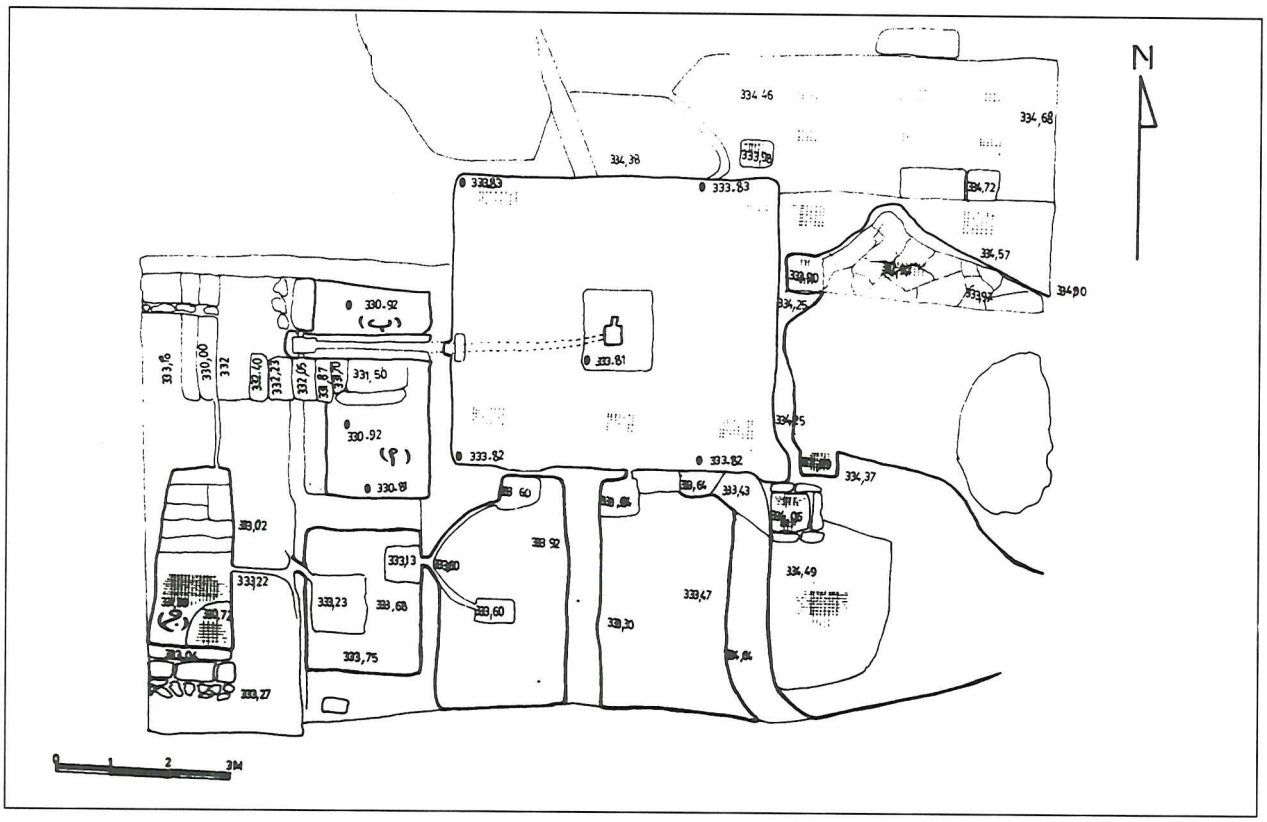

شكل (٣) مسقط أفقي للمعصرة.

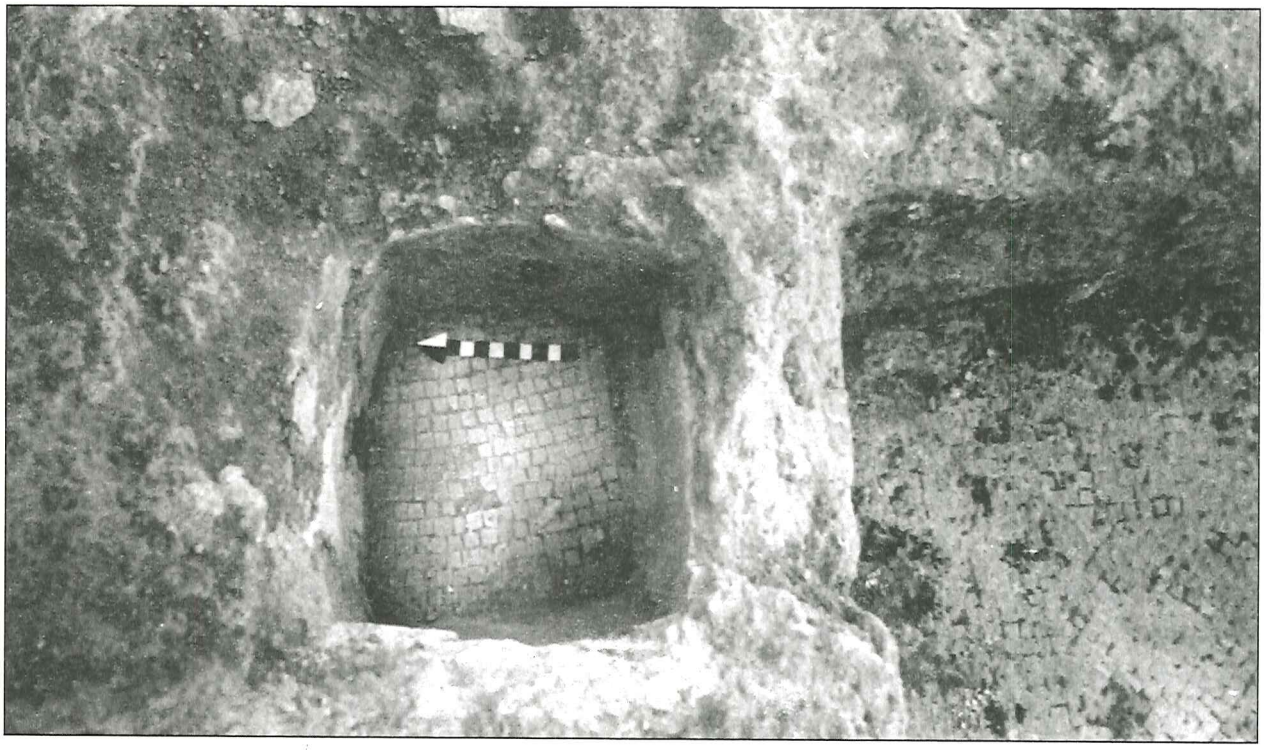

شكل (٤أ) أحد الأحواض الصغيرة في نهاية المسطح ذو أرضية فسيفسائية.

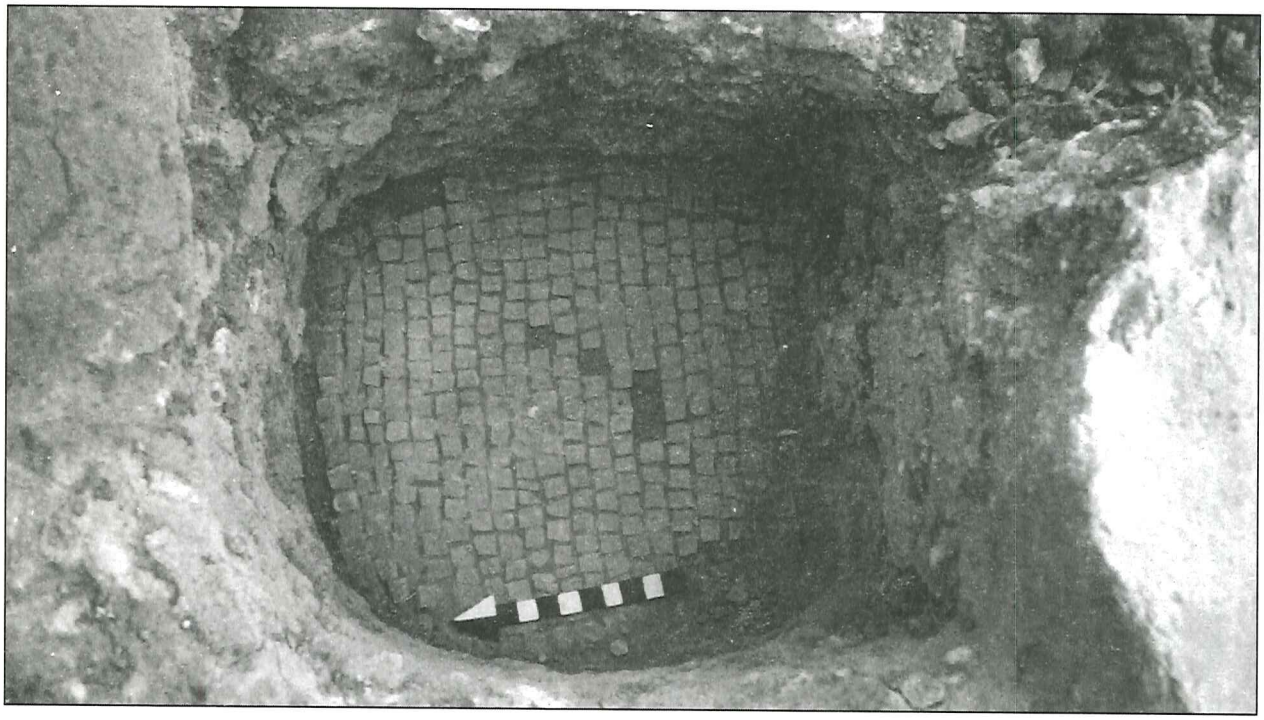

شكل (٤ب) أحد الأحواض الصغيرة في نهاية المسطح ذو أرضية فسيفسائية.

ضغط العنب المكوم على المسطحات، وهذا العصير (النبيذ) المنتج حلو المذاق وذو جودة عالية وكان يباع بأسعار مرتفعة. (Roll and Ayalon 1981: 199), (Forbes 1955: 110).

يتوسط سلسلة المسطحات تلك الأرضية الرئيسية لهرس العنب مربعة الشكل أبعادها (٥,٣٠ × ٤,٨٠م) وهي عبارة عن حوض مقطوع في الصخر تنخفض أرضيته عن أرضية المسطحات المحيطة به (انظر الارتفاعات على المخطط المرفق شكل ٣) وهذه الأرضية مرصوفة بالفسيفساء ذات مكعبات كبيرة ولون زهري وبحجم مكعبات اللون الأبيض.

يتوسط الأرضية حجر مربع الشكل أبعاده (١,٢٠ × ١,٣٠م) وسماكته ٧١سم، قطع له تجويف في الصخر وثبت فيه بحيث أصبح مستوى سطح الحجر من الأعلى بمستوى سطح الأرضية الفسيفسائية. وفي منتصف الحجر تجويف مربع الشكل تقريباً أبعاده (٣٠×٣٨سم) يتصل ضلعه الشمالي بثلم أبعاده (١٢×٢٢سم) ويستعمل هذا الثلم لتثبيت عمود خشبي نهايته العليا مسننة بشكل حلزوني، يثبت عليه اسطوانة خشبية مسننة ومتحركة تؤثر بحركتها بشكل دائري ضغطاً على بقايا العنب المتجمع في السلالة حول قاعدة العمود بعد دوسه بالأرجل على أرضية الهرس وذلك من أجل الحصول على أكبر كمية ممكنة من العصير وحتى آخر نقطة منه (Roll and Ayalon 1981:121.6) (Ahlstrom 1978:30) أما المخلفات المتبقية بعد عصر العنب بواسطة العمود الخشبي المسنن مثل قشور العنب والبذور فكانت تستعمل علفاً للحيوانات أو لتسميد الأرض (Roll and Ayalon. 1981: 123). ولقد وصف بلني (Pliny) تلك التجهيزات الفنية في هذا النوع من المعاصر وذكر بأنها من اختراع يوناني في القرن الأول قبل الميلاد وطورت في النصف الأول من القرن الأول الميلادي (Roll and Ayalon 1981: 121).

وتتصل أرضية الهرس الرئيسية بحوضين كبيرين هما (أ، ب) (انظر المخطط المرفق شكل٣)، (شكل ٥) يفصل بينهما جدار مبني من الحجر المشذب غطيت جوانبه بطبقة سميكة من القصارة الكلسية ،ثبت في أعلى الجدار حجر مستطيل الشكل طوله ٢,٣٥م وعرضه ٤٠سم حفر على طول الحجر وفي منتصفه مجرى متصل مع المجرى القادم من أرضية الهرس تحت الأرضية الفسيفسائية والمتصل بأسفل الحجر المجوف المثبت في منتصف أرضية الهرس (شكل ٦). وهذا المجرى معد

شكل (٥) منظر عام للمعصرة.

شكل (٦) الحجر المحفور به المجرى والمثبت على الجدار الفاصل بين الحوضين (ز، ب).

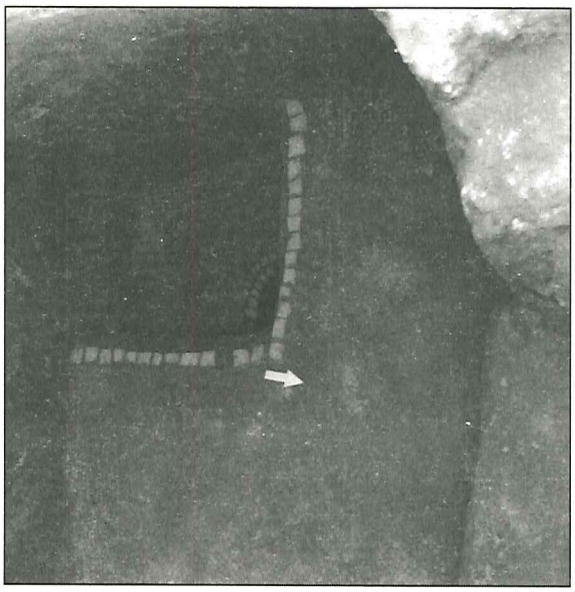

شكل (٧) الحوض الصغير المحفور في أرضية تجميع العصير (أ) أرضية مرصوفة بالفسيفساء.

لإنسياب العصير إلى حوض التجميع عند هرس العنب وبعد ضغطه بواسطة العمود الخشبي المسنن.

وفي نهاية المجرى المحفور في الحجر المستطيل من الطرف الآخر حوض صغير مربع الشكل على جانبيه فتحتين دائريتين قطر الواحدة منها ٤سم تسمح للعصير بالإنسياب إلى حوض التجميع (أ) أما الفتحة الثانية فتصب خارج الحوض (ب) وتستعمل لطرح المياه خارج المعصرة أثناء عملية التنظيف عند بداية الاستعمال وبعد الانتهاء من العمل حيث توجد قناة محفورة في الصخر أمام الحوضين تؤدي إلى خارج المعصرة. تبلغ أبعاد الحوض (أ) (٢,٧٥×٢,٧٥م) وبعمق ٢,٢٠م يتم النزول من خلال خمس درجات مقطوعة في الصخر أرضياتها مع أرضية الحوض مرصوفة بالفسيفساء وجدرانه مغطاة بطبقة سميكة من القصارة الكلسية، ويوجد في الزاوية الجنوبية الغربية من أرضية الحوض حوض صغير (شكل ٧) أبعاده ٩٥×٨٠سم بعمق ٤٤سم حفر في أرضيته حوض صغير نصف دائري عمقه ٢٧سم لتثبيت الجرة التي تستقبل العصير القادم من أرضية الهرس.

أما الحوض (ب) فأبعاده ٣,٢٠ × ٢,٨٠م بعمق ٢,٢٠م وهو دائري الشكل أرضيته وجدرانه مغطاة بطبقة سميكة من القصارة الكلسية وليس له مدخل وربما استعمل للتخمير. وفي الزاوية الجنوبية الغربية للمعصرة يوجد حوض آخر (ج) لتجميع العصير مستطيل الشكل أبعاده (٣,٢٠×١,٣٠) وبعمق ١,٨٥م (انظر المخطط المرفق شكل ٣) يتم النزول إليه عبر ستة درجات جميعها مرصوفة بالفسيفساء مع أرضية الحوض الذي توجد في زاويته الجنوبية الشرقية حفرة دائرية الشكل قطرها ٨٠ سم وعمقها ٥٠سم معدة لإستقبال العصير القادم من المسطحين (٦، ٧) عن طريق دوس العنب بالأرجل، وهذين المسطحين مع الحوض (ج) يعملان عمل معصرة مستقلة.

ومن آلية التشغيل في المعصرة يمكننا القول بأن هناك ثلاثة أنواع من العصير (النبيذ) كانت تنتج في ان واحد. وهم:

١- النوع الأول عن طريق ثقل ضغط العنب على بعضه البعض عند وضعه على المسطحات حيث ينساب منه عصير يجمع في الأحواض الصغيرة الموجودة في نهاية كل مسطح.
٢- النوع الثاني عن طريق هرس العنب بالأرجل كما في المسطحين (٦، ٧) وتجميع العصير في الحوض (ج).
٣- النوع الثالث عن طريق ضغط العنب المهروس بواسطة العمود الخشبي المسنن وتصفية العصير في الحوض (أ).

تاريخ المعصرة

لا بد للإشارة هنا إلى أن المعصرة قد تعرضت لأعمال العبث والتخريب منذ أمدٍ بعيدٍ إذ لم يكن

بالإمكان الكشف عنها حسب التسلسل الطبقي. فقد عثر على كسر فخارية تعود للفترتين الأموية والمملوكية في حوضي تجميع العصير (أ،ج) أثناء تنظيفهما. ويستنتج من ذلك أنهما استعملا كحفر لطرح النفايات خلال الفترتين المذكورتين.

أما في الحوض (ب) والمغطاة جدرانه بالقصارة كما ذكر سابقاً فقد وجدت عدة كسر فخارية محززة السطح الخارجي ترجع إلى أواخر العصر البيزنطي ملصقة على جدران الحوض مع الطبقة الأولى للقصارة كنوع من تسوية جدران الحوض وتقوية القصارة.

وقد عثر على ما يشابهها في معصرة ديران (مستعمرة رحبوت) وأرخت تلك المعصرة إلى القرن السادس الميلادي (Roll and Ayalon 1981: 115).

وتشير المعلومات الأثرية إلى أن المعاصر التي تحتوي على أرضية هرس رئيسة يتوسطها الحجر المجوف ليثبت به العمود الخشبي المسنن كما في معصرة قم هذه تؤرخ الى الفترة البيزنطية وقد وجدت عدة أمثلة على هذه المعصرة في فلسطين مثل معصرة ديران (مستعمرة رحبوت) ومعاصر جلمي (Jele-miye) وبير القط ومعصرة (Bethphage).

ورسمت أجزاء النظام المتطور لهذا النوع من المعاصر بالفسيفساء في أرضيات الكنائس التالية: كنيسة القديس كريستوفر (Christopher) جنوب مدينة (Tyre) في شمال فلسطين، وكنيسة القديسين لوط وبروكوبيوس وكنيسة القديس جورجيوس في جبل نبو (خربة المخيط) وأرّخت تلك الكنائس إلى القرن السادس الميلادي (Hirchfeld 1983: 215-217).

بدأت تشهد هذه المعاصر في أواخر القرن الخامس الميلادي وأوائل القرن السادس الميلادي تطوراً فاعلاً باستخدام العمود الخشبي المسنن في أرضية الهرس وأصبح عدد كبير من هذه المعاصر تزيد من أحواض النشر والترسيب وأحواض الهرس، ويظهر ذلك في معصرة الصويفية (Zayadine 1981: 341-355)، التي أُرخت إلى القرن السادس الميلادي.

الخلاصة

يستنتج من ما تقدم أن معصرة قم تعتبر نموذجاً للتطوير التقني في معاصر العنب، وهذا يدل دلالة واضحة على مدى ارتباط النشاط السكاني في موقع قم والمواقع المجاورة له بالزراعة، فمن المسح الأثري الذي قام به شوماخر (Schumacher 1980: 119-147) في المنطقة المحيطة بقرية قم عثر على أربعة معاصر للعنب أو الزيتون، ومن المسح الأثري الذي أجراه متمان (Mittmann) عام ١٩٦٠ في منطقة شمال الأردن تم خلاله تسجيل ٣٦٤ موقعاً أثرياً من بينها ٢٤٠ موقعاً احتوت على مخلفات بيزنطية، ورافق هذه الكثافة السكانية توسعاً في زراعة الأراضي وشكلت زراعة كروم العنب نسبة كبيرة، واعتبرت عنصراً أساسياً في اقتصاديات تلك الفترة (طراونة ١٩٩٠: ٨٠) وتأتي معصرة قم هذه كدليل على مدى الإزدهار الاقتصادي لهذه المنطقة في تلك الفترة.

لا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر لكل من السادة سلامة فياض وضياء طوالبة وعماد عبيدات الذين شاركوا في أعمال الحفر والتنقيب في المشروع والسيد إسماعيل ملحم الذي أشرف على أعمال الحفر في الأسبوع الأول والسيد حسين ديباجه (مصور) معهد الآثار والانثروبولوجيا - جامعة اليرموك.

حكمت الطعاني
دائرة الاثار العامة/ مكتب اثار إربد

المراجع

المحيسن، زيدون
١٩٩١ التنقيبات الأثرية في موقع اليصيلة للموسم الرابع ١٩٩١، **أنباء** ١٢: ٩-١١ معهد الآثار والأنثروبولوجيا، جامعة اليرموك/ إربد.

طروانة، فايز
١٩٩٠ موقع قم في ضوء الأعمال الميدانية: دراسة تحليلية مقارنة، رسالة ماجستير غير منشورة: معهد الآثار والأنثروبولوجيا، جامعة اليرموك/إربد.

Bibliography

Ahlstrom, G.W.
1978 Wine Presses and Cup Marks of the Jenin-Megiddo Survey. *BASOR* . 231: 19-47.

Forbes, R.J
1955 *Studies in Ancient Technology*. Vol. III. P. 10. Leiden.

Hirschfeld, Y.
1983 Ancient Wine Presses in the Park of Aijalon. *IEJ*, 33, nos./3-4: 207-218.

Mittmann, S.
1970 Beitrage Zur Seidluangs-Und Territorial geschichte Des notdichen Ostjordan Lands, Otto harrassouitzwiesbadin.

Roll, I. and Ayalon, E.
1981 Two large Wine Presses in the Red Soil Regions of Israel. *PEQ*, 111-124.

Schumacher, G.
1890 *Northern Ajlun, Wthin the Decapolis*. London. The Committee of the Palestine Exploration Fund.

Zayadine, F.
1981 Reset Excavaion and Restoration of the Department of Antiquities (1979-1980). *ADAJ* 25: 341-355.